هوامش

لدى التونسيين في مدينة تستور عادات خاصة، من بينها حفر قبورهم قبل وفاتهم. وفي هذا حثّ على تجنب الخطايا والاستعداد لحسن الخاتمة

يزور أحد موتاه (العربي الجديد)

منزول تونس

حفر القبور وتجهيزها قبل الوفاة

تونس ـ **مريم الناصري**

إكرام الميت دفنه، وجرت العادة أن تتكفل العائلة بهذا الإكرام. لكن الأمر يختلف قليلاً في مدينة تستور (تقع على هضبة في حوض وادي مجردة شمالي البلاد). وعادة ما لا يعرف المرء مكان دفنه أو شكل قبره قبل وفاته. لكن في تلك المدينة، يحفر الناس قبورهم بأيديهم ويجهزونها وهم أحياء. ولدى التجول في المقبرة الكبيرة في المنطقة، يلاحظ وجود عشرات القبور الخالية، بعضها مفتوح والبعض الآخر مغطى من دون وجود اسم أو تاريخ وفاة. وتنحصر هذه العادة في تستور. ويقول رئيس جمعية صيانة مدينة تستور رشيد السوسي لـ«العربي الجديد»: «كانت مدينة تستور تسمى تكيلا (تحيط بها مجموعة من الجبال التي تخبئها)، ووحدهم أهلها يحفرون قبورهم بأنفسهم قبل وفاتهم بسنوات استعداداً للموت في أي لحظة». ويشرح أنها «عادة أندلسية بالأساس، ويُسمى القبر بالمنزول أو المنزل، وظهرت في تونس مع وصول الموريسكيين (المسلمون الذين بقوا في الأندلس تحت الحكم المسيحي بعد سقوط الحكم الإسلامي للأندلس وأجبروا على اعتناق المسيحية) وانتشرت بين سكان بعض مدنها، على غرار منطقة تستور وبعض المناطق في ولايتي منوبة (شمالي البلاد) ونابل (شمال شرقي البلاد). إلاّ أنها اندثرت مع مرور الوقت في تلك المناطق وبقيت في تستور». ويشير السوسي إلى أنّ «بعض الروايات تفيد بأنه مع سقوط مملكة غرناطة عام 1492، توفي عدد كبير من الأشخاص من دون أن يدفنوا طوال أيام عدة. وبعد مرور بعض الوقت، بدأ الناس بناء قبورهم قبل وفاتهم. وإذا ما توفي أي شخص، يُرفع الغطاء الإسمنتي ويُدفن». يتابع السوسي أنّ «القبر يحتاج عادة ما بين يومين وأربعة أيام لبنائه بعمق متر وطول مترين. تفرش أرضيته بالرّمل بينما تكون جدرانه الداخلية إسمنتية. وتوضع اللّحود على شكل هرم لتغطّى بطبقة من الإسمنت ليوضع ‹الشاهد› وهو حجارة تثبت على رأس القبر يكتب عليها الاسم الثلاثي للمتوفى. يختار الشخص، بحسب إمكاناته المادية، استعمال الإسمنت أو الرخام خلال بناء قبره. ويستعين في عملية الحفر أو البناء ببعض الأشخاص الذين يعملون في حفر القبور. ويخبر كل شخص عائلته بمكان قبره ليدفن فيه بعد موته».

ولا يقتصر الأمر في تلك المنطقة على بناء القبر، إذ يُصرّ كلّ شخص على شراء كفنه قبل وفاته. ويقول أحد سكان المنطقة، وهو خليل الباجي: «العادة قديمة جداً وترتبط بتوقع الموت في أي لحظة. كما تساعد في الابتعاد عن الخطايا في الدنيا والتوبة عن الذنوب». يضيف: «غالبية سكان المنطقة يحفرون قبورهم، وحتى الشباب منهم. ولا يعد الأمر فألاً سيئاً بقدر ما يحفز على التوبة وتوقع الموت في أي لحظة وإكرام الشخص نفسه حياً وميتاً». وتتميز مدينة تستور بعادات مختلفة بالمقارنة مع مناطق تونسية أخرى، وتشتهر بعمارتها ذات الطابع الأندلسي، سواء في الساحة الكبيرة وسط المدينة أو جامعها الكبير قرب السوق العتيق أو في طريقة بناء المدينة القديمة، وذلك من خلال النقوش والزينة، بالإضافة إلى استخدام القرميد بشكل كبير والزخرفة على واجهات البيوت أو المساجد. ويعتقد الكثير من الأهالي أن عادة بناء القبور متوارثة عن الأندلسيين، وقد حافظت الأجيال عليها. ويؤكد السوسي أن المنطقة ما زالت تحافظ على العديد من العادات الأندلسية التي لا توجد في مناطق أخرى من تونس. من جهته، يشير عبد الحميد، وهو أحد سكان المدينة، لـ«العربي الجديد»، إلى أنّ «العائلة لا تنزعج في حال رغب أي فرد في بناء قبره وإن كان شاباً. ولا يشير الأمر إلى أن الشخص سيموت قريباً، لكنّها عادة قديمة، ولا بأس في أن ينتظر أي شخص الموت. ذلك قد يجعله يبتعد عن الذنوب ويفكر في حسن الخاتمة». يضيف أن «بعض النساء ممن لا يستطعن بناء قبورهنّ بأنفسهنّ يفوضن المسؤول عن المقبرة أو أحد الأقارب حفر قبورهنّ وكتابة أسمائهنّ عليها. ولا يحتاج الأمر إلا إلى ترخيص من المسؤول عن المقبرة. من جهة أخرى، فإن غالبية الناس باتوا يحفرون قبورهم قرب سكن عائلاتهم، ولا فرق بين أن يبني الشخص قبره بنفسه وبين أن ينتظر وفاته حتى يُحفر القبر». كما يوضح أنّ العديد من التونسيين يستغربون تلك العادة كونها لا توجد سوى في تلك المنطقة. لكن في بعض المناطق الأخرى، يُشترى القبر قبل الوفاة، على غرار بعض المناطق في المدن الساحلية. وتوارث التونسيون هذه العادات عن الحضارات القديمة».

باختصار

تفيد بعض الروايات بأنّه مع سقوط مملكة غرناطة عام 1492، توفي عدد كبير من الأشخاص من دون أن يدفنوا طوال أيام عدة. وبعد مرور بعض الوقت، بدأ الناس بناء قبورهم قبل وفاتهم

■■■

يختار الشخص، بحسب إمكاناته المادية، استعمال الإسمنت أو الرخام في بناء قبره

■■■

بعض النساء ممن لا يستطعن بناء قبورهنّ بأنفسهنّ يفوضن المسؤول عن المقبرة أو أحد الأقارب حفر قبورهنّ وكتابة أسمائهنّ عليها

وأخيراً

نعم... هي أشياء لا تُشترى

سعدية مفرح

في حياة كل منا أشياء كثيرة لا تباع ولا تشترى، حتى وإن بدت لنا بسيطةً وغير لافتة للوهلة الأولى. أو ربما لا نعرفها ولا نستطيع تمييزها أحيانا من بين ما نملك أو يتملكّنا من مشاعر وحالاتٍ ومعانٍ وأشياء. لكنها، في لحظة ما، تتبدّى لنا حقيقةً جميلة، ولا يمكن تجاهلها أو الشعور بالامتنان لها ولأصحابها. هي فعلا أشياء لا تُشترى، بعيدا عن المعنى الذي أراده أمل دنقل في قصيدة شهيرة له، والتي ورد فيها هذا المعنى على الصعيد الوطني أو السياسي، فحياتنا أقدم من هذا المعنى وأوسع وأكثر تنوّعا. وبالتالي، علينا دائما النظر في تلك الزوايا المعتمة في حياتنا لاكتشاف تلك الأشياء العصيّة على البيع أو الشراء أو التفريط بها.

نعيشها مواقف وحالات، ونحتفظ بها ذكريات ومبادئ، ونشعر بقيمتها تلويحة أخيرة أحيانا على حافّة غياب عزيز، أو رسالةً مذيّلةً بتوقيع مجهول، لا تلبث أن تكون مسارا للعمر كله، أو بيتا شاردا من قصيدة حب أندلسية، أو لوحة معلقة بإهمال على جدار مهملٍ بدوره نكتشف، بعد سنوات على تعليقها، أنها تلخّص خريطة الحياة في الكرة الأرضية، أو كتابا صغيرا محشورا بين كتبٍ لامعةٍ في رفّ مكسور نجده فجأة، ونحن نبحث عن سطر منسي في روايةٍ قديمة، فنعرف أنه وحده المطلوب! كثيرة هذه الأشياء، وإنْ كانت بمعناها النبيل نادرة وقيمة.

وأنا أعيش حياةً مزدحمةً بكثير من هذه الأشياء التي لا تُشترى، وأشعر أنني محظوظة جدا بوجودها في حياتي، وأنني أعرفها، وأشكر الله عليها، لأنها أضفت على حياتي غبطةً متولدةً من القناعة والرضا والحب. لكنني، على الرغم من ذلك، أغيب عنها أحيانا تحت وطأة زحام الحياة بمفترقات الطرق وصعوبة المضي في خياراتنا المشتهاة، كأن أقارن حياتي بظروفها الصعبة ومنغّصاتها الكثيرة بحيوات من حولي، فأسقط في حفر المقارنات الساذجة وامتحانات الرضا والقناعة والحب على هوامش الاحتياج والفقد. يحدُث هذا دائما، لكنه لحسن الحظ لا يستمر طويلا، فسرعان ما تباغتني الحوادث بما يذكّرني بتلك الأشياء التي لا تُشترى في حياتي، وأعظمها محبّة أغلبية الناس ممن أعرف وممن لا أعرف، وهي محبّة تأتيني بهيئة فيوضٍ غامرةٍ للروح، ومحمّلة بمعانٍ لا يمكن تحديدها على وجه الدقّة. أقف أمامها قليلا في مواقف الارتباك ومحاولات التفسير فلا أكاد أنجح إلا بالعودة إلى بهجة الدعاء، عندما يعرج بروحي إلى سماء اليقين .. وما أجمله وما أقربه من يقين.

> علينا دائماً النظر في الزوايا المعتمة في حياتنا لاكتشاف الأشياء العصيّة على البيع أو الشراء أو التفريط بها

في العشرة الأواخر من شهر رمضان المنصرم، كنت أعيش تلك البهجة الغامرة بفيوض الدعاء خلال صلوات القيام، وكان يقيني بالإجابة دافعا لي إلى التفكّر في تلك الأشياء التي لا تُشترى في حياتي .. والتي لا يمكن أن أتجاهلها حتى وأنا أرصد ثغرات النقص الواضحة في حياتي. وربما كان هذا من علامات الاستجابة لصادق الدعاء وشفافيته في ليالٍ عابقةٍ باستشعار الخير، والسعي إليه صلاة وصياما وقياما ودعاء. عندما عصف عاصفٌ بسيطٌ في حياتي اليومية، في أثناء ذلك كله، كانت محبّة الناس الغامرة بفيوضها الدرع الواقي لي من أي شعورٍ بالضعف أو الحزن أو الارتباك أو حتى الخوف. لذلك وجدتُني أكمل سجودي الليلي بصلاةٍ لها طعم اللذة كله، فأكتشف أن تلك الصلاة هي ما أحتاجه لأكمل ما تبقى لي من حياةٍ بخياراتي الخاصة حرّة وممتنّة بكل ما يساهم في تعزيز حرّيتي كما أريدها، وكما أتمنّاها، وكما أحلم بها هدفا أخيرا لحياتي. الحمد لله.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالا**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**